الفصل الأول

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي والحقائق القرآنية

التكوين التوراتي يجمع بشكل مختصر جداً قصة خلق الله للسموات والأرض والحيوانات ومن ثم الإنسان آدم عليه السلام في إصحاح واحد فقط وهو الإصحاح الأول من سفر التكوين. وفي الإصحاح الثاني يبدأ الحديث عن آدم باعتباره أول مخلوق خلقه الله من تراب، وتتحدث التوراة في هذا الإصحاح عن الجنة وكيفية حياة آدم فيها. ثم تتحدث بشكل سريع عن خلق الله سبحانه لحواء. وتنتقل إلى الحديث عن الحية وإغواء آدم وزوجه، والخطيئة والهبوط من جنة الخلد إلى الأرض. ويتحدث الكتاب في الإصحاح الرابع عن ولدي آدم قابيل وهابيل وكيف قتل الأول الثاني. وبسرعة هائلة ينتقل إلى الحديث عمن ولدهم قايين وشيث. وقد ركزت التوراة على ذكر أبناء شيث ومنهم أخنوخ حتى يصل الحديث عن نوح وأولاده سام وحام ويافث وعمله في السفينة حتى قيام الطوفان).

وفي الإصحاح الثامن تذكر التوراة مسير سفينة نوح عليه السلام في البحر ثم هدوء الطوفان واستقرار الفلك على جبال أراراط . ثم تتحدث عن استقرار نوح وأبنائه في الأرض وعملهم فيها. وينتقل للحديث عن أبناء نوح وشعوبهم وتوزعهم في الأرض. وبدأ من الإصحاح الثاني عشر يأخذ الحديث مجرى آخر حيث يتحدث عن إبراهيم ورحلته وأبنائه ويذكر موت إبراهيم في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين. ويتابع الحديث عن أبناء إبراهيم إسماعيل وإسحق ويعقوب وعيصو ومن ثم يوسف والأسباط في السفر الخمسين.

هذا ملخص سفر التكوين الذي يمكن للمرء أن يصل له دون الخوض في التفصيلات. والواضح أن التوراتيين أرادوا من هذا السفر إيضاح سلسلة أنساب بشرية تبدأ من آدم وتنتهي مؤقتاً عند يوسف، باعتبار أن هذه السلسلة هي التي

تمخض عنها أبناء إسرائيل عن طريق الانتخاب والانتقاء.

وإذا نظرنا إلى التكوين الغيبي للسماء والأرض وخلق الجبال والحيوانات وجدنا أنه لا يستغرق في هذا السفر سوى صفحة واحدة، أو إصحاح واحد حيث يبدأ الحديث عن آدم وعن السلسلة البشرية إلى النبي يوسف.

يبدأ الإصحاح الأول في القول: في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلاً بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً.

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً. ومجتمع المياه دعاه بحاراً. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً ذا ثمر يعمل ثمراً كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك فأخرجت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً كجنسه وشجراً يعمل ثمراً بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً ثالثاً.

وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنواراً في جلد السماء لتنير على الأرض وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل. والنجوم. وجعلها الله في جلد السماء لتنير ولتحكم على الليل والنهار ولتفصل بين النور والظلمة، ورأى الله ذلك أنه حسن وكان مساء وكان صباح يوماً رابعاً.

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي

فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه ورأى الله ذلك أنه حسن وباركها الله قائلاً أثمري واكثري واملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوماً خامساً.

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. وعلى صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً وكان مساء وكان صباح يوماً سادساً.

فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً.

«هذه مبادئ السموات والأرض حين خلقت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات، كل شجر البرية لم يكن بعد في الأرض وكل عشب البرية لم ينبت بعد لأن الرب الإله لم يكن قد أمطر على الأرض ولا كان إنسان ليعمل الأرض. ثم كان ضباب يطلع من الأرض ويسقي كل وجه الأرض، وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض.

ونفخ في أنفه نسمة حياة. فصار آدم نفساً حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً. ووضع هناك آدم الذي جبله. وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس اسم الواحد فيشون وهو

المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب. وذهب تلك الأرض جيد هناك المقل وحجر الجزع، واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حدّاقل وهو الجاري شرقي أشور والنهر الرابع الفرات».

هذا ما جاء في الإصحاح الأول من سفر التكوين عن مسائل خلق الله للسماوات والأرض والليل والنهار والمياه واليابسة والحيوانات والنباتات والإنسان.

ويبدو أن ما جاء في هذا الإصحاح يصدر من مصدرين. والفقرات التي وضعناها بين قوسين تنفصل عما قبلها في الأخبار من ناحية وفي الصيغة من ناحية أخرى، وفي الاختصار من ناحية ثالثة. وسنعود لمناقشة ذلك بعد أن نورد الآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق.

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ [الحديد: 4].

ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: 3].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54].

ويقول تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 9-12].

يقـــول تعـــالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: 27 ـ 33].

يقول تعـالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

يقـــول تعـــالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: 17].

يقـول تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 15 ـ 16].

يقول تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: 12 ـ 13].

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان: 59].

يقـول تعـالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38].

ففيما ورد في التوراة وما ورد في القرآن الكريم نرى أن عدة أيـام الخلق ستة أيام وقد صرح بكلمة (ستة) القرآن الكريـم في كثير من المواضـع. كمـا أن التـوراة صرحت بأن الرب أنهى عمله في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع.

غير أن التـوراة يصـرح بـأن الله خلـق السـموات والأرض، وكـانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة. أما كيف خلق السموات والأرض فهـذا لـم تصـرح بـه التـوراة. ولأي مـن البشـر أن يتسـاءل عـن الأصـل الـذي كـانت عليـه السموات والأرض أو أن يسلّم تسليماً نهائياً بأن السـموات والأرض خلقتـا هكـذا وهذا ما قاله الرب وكفى.

وحينما ننظر ملياً في آيات القرآن الكريم نرى أن عملية الخلق الكوني لم تصبح واقعاً إلا بعد أن تمت عملية فصل كبيرة بين الأجرام السماوية.

ففي سورة الأنبياء يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[30].

وعملية الفتق هذه تمت قبل أن تخلق السماء وقبل أن تخلق الأرض. فالأرض والسماوات كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت فصارت هنا أرض وصارت هناك سموات وإذا عدنا إلى نظريات العلم الحديث التي تناولت كيفية تشكل الأرض والكواكب والشمس نجد أنها تتوافق مع ما نص عليه القرآن على الرغم من أن هذه النظريات تبقى في باب التوقعات القريبة من الصحة لأنها استندت على دراسات واسعة تناولت طبيعة الأرض وجيولوجيّتها وكذلك الكواكب والشمس وبقية الأجرام السماوية.

لقد أشار القرآن إلى عملية الفتق بين شيئين ملتحمين.

وحين ننظر إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا﴾ [فصلت: 11] فالدراسات الجيولوجية ترى أن عملية الانفجار الكبرى التي نتج عنها تكوُّن الأرض وبقية الأجرام السماوية شكلت كتلة غازية هائلة. وهذا أمر طبيعي يتوافق مع أبسط قواعد العقل والمنطق. فالبركان الذي ينفجر يخلف كتلة غازية هائلة تنتشر على مساحات شاسعة من الفضاء وهي عبارة عن ذرات قد تكون فيها مواد.

فقوله تعالى استوى إلى السماء وهي دخان إشارة واضحة إلى وجود كتلة غازية ذات جزئيات. والدخان نفسه يتكون من قوام غازي حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزئيات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو حتى السائلة

مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر[1].

وعندما نعود إلى قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ نرى أن تتمة الآية تقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

وهذا الإرداف لم يأت عبثاً فالفتق الذي تم بين السموات والأرض وما لحقه من تشكل كتلة غازية وانفجارات في الأرض لا بد أن تتبعه عملية تبريد ولن يتم ذلك إلا بالماء.

فهناك غازات ـ دخان ـ ولا شك أن تشكل المطر يتم بوجود الغيوم التي هي عبارة عن غازات وبخار. وإذا تخيلنا الكتلة الغازية بحجمها الذي نتج عن انفجار الفتق بين السموات والأرض لأدركنا أن الأرض وبعض الكواكب ما كانت لتبرد لولا هطول الأمطار الغزيرة الواسعة النطاق والتي شملت الأرض كلها وقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ يشمل الحيوان والنبات وكل ما هو مخلوق محتاج للحياة.

فبدء الخلق ابتدأ بفصل الأرض عن الأجرام السماوية، ثم تبريد القشرة الأرضية بواسطة الماء ثم خلق كل شيء حي على وجه الأرض بسبب وجود الماء.

وطبيعي أن الآية هنا ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، توجز عدة عمليات كونية لا يقدر إنسان أن يقدر زمنها بدقة لأنها ليست من اختصاص من لم يكن شاهداً عليها، إن ما جاء به العلماء فرضيات قد تكون صحيحة أو لا تكون.

بعد ذلك يستطيع المرء متابعة عملية الخلق كما وردت في التوراة وكما وردت في القرآن الكريم ليرى مدى الاتفاق ومدى الاختلاف.

ففي اليوم الأول خلق الله السموات والأرض وحسب قول التوراة (والأرض خربة وروح الله يرف على وجه الماء).

---

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 163.

وقال الله ليكن نور. ثم فصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً.

وفي اليوم الثاني هناك جلد في وسط المياه. ثم فصل بين الجلد الذي تحت الماء والجلد الذي فوقه ودعا الله الجلد سماء. وفي اليوم الثالث تجتمع المياه تحت السماء وتظهر اليابسة ودعا الله اليابسة أرضاً. ثم خلق الله النباتات.

وفي اليوم الرابع خلق الله الأنوار في السماء لتفصل بين الليل والنهار.

وفي اليوم الخامس يخلق الله الحيوانات والطيور من زحافات وتنانين كبار.

وفي اليوم السادس يخلق البهائم وجميع دبابات الأرض والإنسان).

فمن خلال ما ورد نرى أن الله خلق في اليوم الأول أرضاً خربة وخلق النهار من ظلمة نور.

ثم في اليوم الثاني استكمل الله بناء السماء ودعاها سماء وظهرت اليابسة.

ثم مرة أخرى في اليوم الثالث تجتمع المياه بينما كانت روح الله ترف على الماء في اليوم الأول.

ومرة أخرى في اليوم الرابع يخلق الله الأنوار في السماء بينما خلق الله النور وسماه نهاراً منذ اليوم الأول.

وفي اليوم الخامس تخلق الحيوانات والطيور وفي اليوم السادس أيضاً تخلق حيوانات وطيور، فالواضح أن خلطاً يقع بين ما يخلقه الله في اليوم الأول واليوم الرابع وبين اليوم الخامس واليوم السادس بينما يظل الحديث غامضاً في اليوم الثاني، واليوم الثالث.

يقول موريس بوكاي. إن الضوء الذي يقطع الكون هو نتيجة ردود أفعال معقدة تحدث في النجوم، ولكن النجوم حسب قول التوراة لم تكن قد تشكلت بعد في هذه المرحلة حيث أن أنوار السموات لا تذكر في سفر التكوين إلا في الآية 14

باعتبارها ما خلق الله في اليوم الرابع ليفصل بين النهار والليل ولينير الأرض. ولكن من غير المنطقي أن تذكر النتيجة الفعلية أي النور في اليوم الأول على حين تذكر وسيلة إنتاج هذا النور في اليوم الرابع[1].

ويرى المرء أن خلق الشمس تم في اليوم الرابع بينما خلقت النباتات في اليوم الثالث. فكيف يمكن أن نرى عالم نباتات تحيا وتتناسل قبل أن تكون الشمس؟ وهي العنصر الأهم في وجود النباتات واستمرار حياتها؟.

ولنعد إلى آيات القرآن الكريم وكيف تحدثت عن الأيام الستة وما تم فيها من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

في الآيات تارة يتقدم خلق السماوات على خلق الأرض وتارة أخرى يتقدم خلق الأرض على خلق السماء فهل خلقت السماء قبل خلق الأرض أم أن الأرض خلقت قبل السماء؟.

ظاهر الآيات يشير إلى تقدم خلق واحدة على الأخرى. فالآيات التي تشير إلى خلق الأرض أولاً قليلة. وهي في سورة البقرة الآية 29 وسورة طه الآية4 وسورة فصلت الآيات من 9 ـ 12. ويوجد عدد كبير من الآيات يشير إلى خلق السموات أولاً كما في سورة الأعراف الآية 54 وسورة يونس الآية 3 وسورة هود الآية 7 وسورة الفرقان الآية 59 وسورة السجدة الآية 4 وسورة ق الآية 38 وسورة الحديد الآية 4 وسورة النازعات الآيات من 27 إلى 33. وسورة الشمس الآيات من 5 ـ 10.

وعندما نعود إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾، نجد أن عملية خلق السموات والأرض تمت في آن واحد. والفتق الذي أجراه الله فصل الأرض عن السموات في لحظة واحدة أي في وقت واحد. ووجود آيات تتحدث عن خلق السموات قبل الأرض وآيات تتحدث عن خلق

---

(1) موريس بوكاي. القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص: 41.

السموات بعد خلق الأرض دليل على تداخل عملية الخلق. ولم تحدد آية واحدة خلق إحداهما على الأخرى بوجود قرينة لفظية كقولنا مثلاً: خلقنا السماء قبل أو بعد وواو العطف التي تعطف الأرض على السماء أو تعطف السماء على الأرض لا تعني سوى الملاصقة فهي لا تدل على استغراق في الوقت.

أما قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت 9 - 12].

فظاهر الآية يدل على أن عملية الخلق تمت في ثمانية أيام. يومين لخلق الأرض وأربعة أيام لخلق الجبال والأقوات ويومين لخلق السموات السبع.

ومن ناحية ثانية يدل ظاهرها على أن الأرض خلقت قبل السماوات ولكن المدقق في الآيات يرى ما يلي:

خلق الله الأرض في يومين واستوى إلى السماء، إذاً فالسماء كانت موجودة قبل الاستواء وهذا يعود بنا إلى أصل الفتق الذي تم في آن واحد لتشكل الأرض وتشكل السماء، لكن الذي يفهم من الآيات إعجاز الله لعقل الإنسان. فالآية تستنكر موقف الكفار الذين كفروا بالله وهو الذي خلق الأرض في يومين. فليس المقصود تحديد ما خلق الله أولاً إنما المقصود إظهار معجزة الله في خلق الأرض في يومين.

وعملية الخلق تمَّت في ستة أيام وليس في ثمانية. إذ أن خلق الجبال والأقوات تم في أربعة أيام بدءاً من اليوم الأول الذي تم فيه خلق الأرض. أي أن خلق الجبال والأقوات استغرق أربعة أيام من ضمنها اليومان اللذان بدأ الله فيهما خلق الأرض ولا تبدأ الأيام الأربعة بعد انتهاء اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض.

فالأرض موجودة والسماء موجودة كما أشرنا في آن واحد أما قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ فالسبب في ذلك كما هو واضح في الآيات استكمال عملية الخلق. ففي يومين خلق الله سبع سماوات وأوحى في كل سماء أمرها وزين السماء الدنيا بالنجوم لتضيء ما بين السماء والأرض أما طبيعة زمن هذه الأيام فنرى صورتين متناقضتين بين القرآن والتوراة.

فالتوراة تحدد اليوم بقولها وكان صباح وكان مساء أي أن اليوم هو يوم محدد ببدء الصباح وانتهاء المساء وهذا ما يوافق أيامنا التي نحياها إلى اليوم.

أما في القرآن الكريم فاليوم لم يحدد بدؤه ولا انتهاؤه. وقد اختلف علماء المسلمين في تحديد هذه الأيام هل هي أيام كأيامنا هذه أم هي أيام زمنها يعود لتقدير الله سبحانه.

وقد وردت آيتان الأولى في سورة السجدة والثانية في سورة المعراج، تشيران إلى أن اليوم قد يكون ألف سنة مما تعدون. وقد يكون خمسين ألف سنة.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 4 ـ 5].

ويقول تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعراج: 4].

ونأتي إلى اليوم السابع الذي تحدثت عنه التوراة في تكوينها حيث قالت: (وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقاً).

فالتوراة تفترض أن الرب استراح من عناء العمل الذي استغرق ستة أيام. والمقياس هنا مقياس بشري ذي نواميس دنيوية وليس ذا نواميس إلهية خاصة بالله.

أما القرآن الكريم فيجيب على هذا الإفتراض بأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما ولم يمسه تعب فهو الله الخالق القادر على كل شيء.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38].

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: 33]. ففي الآيتين السابقتين يتضح لنا أن القرآن يرد قول الذين افتروا على الله وقالوا إنه استراح بعد خلقه للسموات والأرض. فالله منزه عن التعب والراحة لأنهما من صفات المخلوق المحدود وليست من صفات الله الخالق.

ونحن ندرك جميعاً أن اليوم السابع من الأسبوع هو يوم السبت لدى اليهود وهو اليوم الذي يستريحون فيه لا يعملون عملاً لا في المنزل ولا في خارجه. وقد ربطوا ذلك باستراحة الرب حسب ما يقولون. وقد أوردت التوراة أن الله بارك اليوم السابع أي بارك يوم السبت يوم راحة اليهود. ولا يخفى على المرء معنى هذا الربط وهذا التقديس وهذه المباركة، فالعقيدة اليهودية تربط كل الأمور بما يخص أتباعها حتى تلك التي تتعلق بعملية خلق الله للسموات والأرض واستراحته في اليوم السابع كما يقولون، وسنرى التركيز التوراتي على اليوم السابع يتكرر في التوراة بشكل كبير لاسيما في سفر التثنية وسفر العدد وسفر اللاويين، أي في الأسفار التي يقول اليهود إنها أسفار موسى الأساسية والتي وضع فيها الله الشريعة اليهودية.

التكوين التوراتي والخلفية الأسطورية:

لاشك أن الحديث عن خلق السموات والأرض في سفر التكوين ليس هو وحده الحديث المرتبط بمسألة الخلق. ولو بقي هذا الحديث عند الحدود التي رأيناها لما أثارتنا سوى بعض الإشكالات وإن كان بعضها ينجرف إلى هاوية الكفر المبين كاستراحة الرب في اليوم السابع غير أن مسألة الخلق جاءت متناثرة أحياناً في بعض الأسفار بصيغة

أسطورية يتضح فيها مدى استفادة مدوّني التوراة من أساطير الشعوب وتراثها الديني مناقضين فيها كثيراً مما أوردوا في سفر التكوين أو غيره من الأسفار.

نرى مثلاً في المزمور 74/ 13 أن المياه التي كانت موجودة على الأرض بعد خلق السموات والأرض كان يسيطر عليها تنينٌ ذو رؤوس سبعة. ولم يستطع الرب إحكام قبضته على المياه إلا بعد صراع مع التنين كانت نتيجته قتله وسيطرة الرب على الكون يقول (أنت شققت البحر بقوتك كسرت رؤوس التنانين على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياثان).

فبعض العلماء والباحثين يرى أن هذه الأسطورة، إما مأخوذة من التراث الأسطوري البابلي حيث يقتل الإله مردوخ (تعامت) الآلهة المسيطرة على المياه ومن هؤلاء صموئيل هنري هوك، أو أنها مأخوذة من التراث الأسطوري الكنعاني حيث يقتل الإله بعل إله البحار والأنهار المدعو (يم نهار) وفي كلا الحالتين نرى أن كتبة التوراة هضموا أساطير الشعوب في المنطقة وتأثروا بها كثيراً وظهرت بشكل أو بآخر في كتاباتهم التوراتية[1].

وقد نقلت بعض الأساطير إلى التراث الإسلامي رغم مخالفتها لمنطق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وقد كان لبعض اليهود الذين أسلموا دور بارز في نقل كثير من الأساطير التوارثية المستقاة من أساطير الشعوب في المنطقة. ومن هؤلاء وهب بن منبه وكعب الأحبار وقد تنبه المفسرون والعلماء لتسرب الإسرائيليات في العقيدة الإسلامية غير أن بعضهم لم يعرها اهتمامه واستند على أخبارها في ما رآه من حديث عن خلق الأرض والسموات وآدم وما رافق ذلك من تصورات حول مسألة الخلق بشكل عام.

---

(1) ارجع إلى كتاب نصوص من أوغاريت، أو كتاب اللآلئ، لفيد عرنوق، إصدار دار النهار بيروت، أو كتاب الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي لحسن الباش، إصدار دار الجليل دمشق 1988.

فأبو إسحاق النيسابوري المعروف بالثعلبي وقع في مثل هذه المطبات الإسرائيلية فإذا نظرنا جيداً في كتابه قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس وجدنا منها، ما لا يعتمد الحديث الصحيح ليدعم ما نقله، ويفسر الآيات القرآنية على ضوء ما نقله عن الرواة اليهود والرواة المسلمين الذين لايعتد بهم ولا بأقوالهم.

نورد مثلاً قوله التالي: أهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وأربعون ألف قائمة وجعل قرار قدمي الملك على سنامه فلم تستقر قدماه فأحدر الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة من الفردوس غلظها مسيرة خمس مائة سنة فوضعها بين سنام الثور إلى أذنه فاستقرت عليها قدماه وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض وهي كالحسكة تحت العرش ومنخر ذلك الثور في البحر فهو يتنفس كل يوم نفساً فإذا تنفس مدّ البحر وإذا رد نفسه جزر، ثم يقول (فخلق الله نونا وهو الحوت الكبير اسمه لويتا وكنيته بلهوت ولقبه بهموت فوضع الصخرة على ظهره وسائر جسده خال)[1].

ويتضح من خلال ما ورد أن الثعلبي استفاد من أساطير التوارة استفادة كبيرة حتى أن اسم الحوت (لويتا) مأخوذ من اسم التنين (لوياثان) الذي صرعه الرب قبل سيطرته على المياه وتدبير الكون حسب زعم التوراة.

ويورد الثعلبي قوله: وقال كعب الأحبار: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرض فوسوس إليه وقال له: أتدري ما على ظهرك يا لويتا من الأمم والدواب والشجر والجبال وغيرها؟ لو نفضتها أو ألقيتهم عن ظهرك أجمع لكان ذلك أريح لك قال: فهم لويتا أن يفعل ذلك فبعث الله تعالى إليه دابة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه فعج الحوت إلى الله تعالى منها فأذن الله لها فخرجت. قال كعب الأحبار فوالذي نفسي بيده إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن هم بشيء من ذلك عادت كما كانت.

---

(1) قصص الأنبياء للثعلبي النيسابوري ص 6، دار الكتب العلمية بيروت 1985، الطبعة الرابعة.

ويستند الثعلبي في كتابه على ما أورده وهب بن منبه أيضاً. وهذه الأخبار ومثيلها ليست من واقع العقيدة الإسلامية في شيء. لأن القرآن الكريم صرح وبمنتهى الوضوح عن سير الأرض والشمس والقمر والكواكب وأصل هذه الأشياء. وجميع ما قاله القرآن يتوافق مع منطق العلم ولا يتوافق مع منطق الأساطير والخرافات.

ولعل من اللطائف التي وردت في آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق السموات والأرض ما يدل على أن المسألة في جوهرها تبيان معجزة الخالق في هذا الخلق.

ففي سورة البقرة يردف الحديث بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[29].

وفي سورة الحديد يردفه بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4].

وفي سورة الملك يقول تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[3].

وفي سورة الأحقاف يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[33].

وفي سورة الزمر يقول تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[5].

وفي سورة فصلت يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[12].

فالهدف من تبيان قدرة الله الخالق وتبيان الإنسان أمام قدرة الله وعلمه، فالتقدير والعزة والعلم كلها من صفات الله سبحانه، تأتي مع آيات الخلق لتؤكد قدرته تعالى وعزته وعلمه، وصغر الإنسان واضمحلاله أمام تقدير الله وقدرته وعلمه، والمسألة فيها من التعليم وفيها من التحدي وفيها من الدروس مالا يستطيع الإنسان الإلمام بها جميعاً.

(إن ما يقصد من الشرائع إن كانت إسلامية أو غيرها بيان ما يرشد الخلق إلى معرفة الله تعالى، وإلى الأحكام التي توصل العباد إلى انتظام المعاش، وأما تعريفهم بمباحث العلوم الكونية من كيفية خلق العالم والنواميس القائمة فيه فإنه

ليس من مقاصد الشرائع بل تلك معارف يتوصلون إليها بعقولهم[1]).

لاشك أن القرآن الكريم والتوراة يتوافقان في الحديث بأن الله سبحانه خلق النباتات والحيوانات قبل أن يخلق آدم. فالتوراة تقول في سفر التكوين: (وخلق من كل مخلوقات الأرض ذكراً وأنثى وخلق الإنسان ذكراً وأنثى في اليوم السادس).

ويقول تعالى في القرآن الكريم في سورة فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [10].

ويقول في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [30-33].

فالأرض بعد أن أنزل الله عليها الماء أنبت الزرع وخلق فيها الحيوانات تمهيداً ليسكنها الإنسان ونسله.

لقد خلق الله السماوات والأرض والنبات والحيوان والإنسان وهو يعرف بعلمه الأزلي أن الإنسان الذي خلقه ووضعه في جنة عدن سيؤول إلى الأرض لتتم عملية الامتحان الدنيوية.

وقد يقول قائل: لو أن آدم لم يخطئ في الجنة أيبقى فيها مع حواء وينجبان ويتكاثران؟.

حقيقة الأمر أن المرء لا يفترض افتراضاً يعارض مسار علم الله الأولي. فقولنا (لو) هو افتراض نقيسه على مقاييسنا الدنيوية المحدودة بنواميس مادية ملموسة محسوسة تتوافق مع حدود عقلنا.

والواضح أن الله سبحانه خلق الأرض وأقواتها ونباتاتها وحيواناتها بمعنى أنه أحيا فيها الأسباب التي من شأنها أن تمهد لآدم أو للإنسان أن يسكنها ويستخلفها، وما خلْق آدم في الجنة إلا مرحلة أولى من مراحل حياته. وإلا لو بقي

---

(1) نديم الجسر، قصة الإيمان ص210.

في الجنة لما كان هناك امتحان ولما كان هناك جزاء وحساب. وقد خلق آدم من عناصر كثيرة. العاطفة والعقل والجسد والإحساس والنفس وهي جميعاً قابلة لتتحول من آن إلى آن ومن حالة إلى حالة. وقد نسي آدم وصية ربه في ألاّ يطيع الشيطان فكان نسيانه من طبيعته الإنسانية البشرية. فما قام به آدم من عمل هو أول درس لبني البشر قبل أن يتواجدوا على وجه الأرض. فحتى لا يظلموا بيّن الله سبحانه أسباب الخطأ ونتائجه سلفاً قبل أن يخلقوا ويقعوا في ما لا تحمد عقباه.

أما في ما يتعلق بخلق الملائكة والجن، فإن آيات القرآن الكريم توضح وبشكل قاطع أن الله خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق آدم والجنس البشري.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

فالآيتان تدلان بشكل قطعي أن الله سبحانه خلق الملائكة والجن قبل أن يخلق الإنسان.

الملائكة والجن في التوراة والقرآن:

تصرح آيات القرآن الكريم بوجود الملائكة والجن قبل خلق الإنسان آدم. وقد ورد ذكر الملائكة في التوراة. ويختلط على المرء وجود اسمين لمخلوق واحد في التوراة فتارة تصرح بلفظة ملاك الرب وتارة أخرى تصرح بلفظ الكروبيم جمع كروب، وقد فسر قاموس الكتاب المقدس كلمة كروب وكروبيم على أنها قوى سماوية خلقها الله لتسبح له وتنفذ أوامره، وقد ورد في سفر التكوين (فأخرجه

الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة) 3: 23 ـ 24.

ويعني هذا الكلام الذي ورد في سفر التكوين أن الله وضع حراساً من الكروبيم ـ الملائكة على طريق شجرة الحياة الموجودة في الجنة.

ووردت بعض النصوص الأخرى في التوراة تشير إلى هذا الكروبيم حيث يفهم أنهم الملائكة ففي المزمور الثامن عشر تقول التوراة على لسان داود (في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه، صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت، جمر اشتعلت منه طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه ركب على (كروب) وطار وهف على أجنحة الرياح).

فحسب تصور التوراة أن الرب ركب على ظهر الملاك وطار بعد أن نزل من عليائه وهو يرغي ويزبد ويتصعد من أنفه دخان وتخرج من فمه نار.

وقد صرحت التوراة أحياناً بلفظ الملاك. ففي سفر التكوين: 16:7

يرد: (فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك. وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك).

وفي سفر التكوين الإصحاح 19: (فجاء الملاكان إلى سدوم) وفي الإصحاح 19: (ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً) وفي الإصحاح 21: (فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء).

ولم يتضح عمل الملائكة ومهماتهم في التوراة. وتنكر العقيدة اليهودية على جبريل عليه السلام مهمته بإنزال الكتب السماوية على الأنبياء، ويرون أنه ملاك التدمير والهلاك وقد نزلت في القرآن الكريم آية توضح أن من كان عدواً لجبريل هو عدو لله. وقد نزلت الآية بحق اليهود الذي يُعادون الملاك جبريل.

يقول تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 98].

وذكرت سيرة رسول الله ﷺ أن اليهود سألوا نبيّنا ﷺ عمن ينزل الرسالات إلى الأنبياء فقال لهم إنه جبريل فأنكروا ذلك فنزلت الآية الكريمة بحقهم. حيث تدحض ما زعموا وما كذبوا.

ويرى اليهود أن جبريل عليه السلام هو ملاك التدمير الذي دمر سادوم وعمورة حيث كان فيهما قوم لوط وليس هو منزل الرسالات من قبل الله رب العالمين. وقد ذكرت التوراة قصة التدمير في الإصحاح 19 من سفر التكوين.

ويرد في التوراة أن موسى عندما ذهب إلى جبل حوريب ظهر له ملاك الرب تقول التوراة (وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة)[1].

تقول التوراة (فلما رأى الرب أنه موسى مال لينظر ناداه الله من وسط العلّيقة)[2].

ففي هذا النص يظهر ملاك الرب ولا ندري ما هو ولماذا جاء وما هي مهمته ثم يظهر لنا الرب ليكلم موسى من قلب العليقة المحروقة.

حتى عندما تتحدث التوراة عن الألواح التي كتبت فيها الشريعة اليهودية لم تنزل تعاليمها على موسى بواسطة ملاك تقول التوراة (فانصرف موسى ونزل الجبل ولوحا الشهادة في يده لوحان مكتوبان على جانبيهما، من هنا ومن هنا كانا مكتوبين واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين)[3].

ولا يظهر في التوراة مهمة الملائكة ولا خصائصهم فهم يظهرون بشكل غامض في ظروف خاصة.

وإذا أردنا نحن أن نستخلص مهمات الملائكة من خلال نصوص التوراة نجد

---

(1) الكتاب المقدس/ خروج 3:3.

(2) الكتاب المقدس/ خروج 3/ 5.

(3) سفر الخروج الإصحاح 32/ 15 و16/ 17.

أنهم ينزلون من السماء لتدمير بعض المدن ومقابلة بعض الشخصيات التي تركز عليها التوراة كهاجر أم إسماعيل ولوط وإبراهيم عليهما السلام.

ولم يرد أن الأنبياء كإبراهيم أو موسى أو داود قد تلقوا رسالات السماء بواسطة الملائكة (جبريل عليه السلام).

أما القرآن فقد أضحت آياته في كثير منها عمل الملائكة إن كان ذلك بصيغة الجمع أو بصيغة المفرد. وقد ورد ذكر الملك والملائكة في القرآن الكريم 88 مرة ولعل إيمان المسلم لا يكون صحيحاً إلا إذا آمن بالملائكة. ونعلم جميعاً أن أركان الإيمان هي الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان بملائكته والإيمان برسله والإيمان بكتبه والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

فمن آمن بالله دون الإيمان بالملائكة ليس بمؤمن وكذلك ما ينطبق على الملائكة ينطبق على كافة أنواع الإيمان.

والملائكة خلق من خلق الله تعالى لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم واعتقاد وجودهم واجب وهي من الأمور السمعية التي لا يوجبها عقل ولكن رسول الله ﷺ أخبر بوجودهم وجاء في القرآن الكريم والكتب السماوية أسماء بعضهم فوجب اعتقادنا بوجودهم لأنهم ذكروا بنص قاطع الثبوت والدلالة[1].

أما مهماتهم فقد أوضحت آيات القرآن الكريم أن الملائكة خلقوا ليسبحوا الله ويقدسوه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 26 - 27].

ويقول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. فواضح أن الملائكة بشكل عام خلقوا ليسبحوا الله ويتعبدوا له، ولبعضهم مهمات. فمهمة جبريل عليه السلام تبليغ الرسالات للأنبياء.

---

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ص 46.

وقد ورد اسمه جبريل صراحة وورد باسم الروح الأمين وقد أطلق الله سبحانه وتعالى عليه الأمين في كثير من الآيات.

يقول تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: 4-5].

وقد أنزل القرآنُ الكريمُ على قلب سيدنا محمد ﷺ بواسطة جبريل كما أن جبريل أسرى برسول الله ﷺ وعرج به إلى السماء في معجزة إلهية ليس لها نظير.

ومعروف لدى العقيدة الإسلامية والعقائد السماوية الأخرى أن الله سخر ملاكاً لقبض الأرواح وهو عزرائيل عليه السلام.

ويعرف المسلمون أن الله سبحانه خلق ملائكة آخرين لهم مهمات أخرى، إسرافيل ينفخ في الصور يوم القيامة. والملاك رضوان خازن الجنة والملاك مالك خازن النار. ورقيب وعتيد ملكان مكلفان بكتابة حسنات المرء وسيئاته، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12].

وخلق الله ملكين يستقبلان العبد الميت في قبره فيسألانه عن ربه ونبيه ودينه. وعلى النار ملائكة غلاظ شداد لا يعصون أمر الله.

ويتضح من خلال القرآن الكريم أن للملائكة عوالم خاصة بها ومهمات خاصة بها أيضاً لأنها تختلف في طبيعة خلق الله لها. وعوالم المخلوقات كما نراه في قرآننا يتشعب وينقسم إلى أقسام كثيرة فالإنسان والجن والملائكة مخلوقات عاقلة تفكر وتتحدث وإن اختلفت في طبيعة حياتها ومهماتها التي كلفها الله بها.

ولحكمة إلهية فقد خلق الله الإنسان، وخلق الجن من نار والملائكة من نور وركب في الإنسان الجسد والروح والعقل والنفس. وخلق فيه نوازع الخير والشر ليمتحنه بينما خلق الملائكة لتسبحه وتحمده ولا تخضع لمقاييس النزعات المختلفة التي خلق الإنسان ليجربها ويحاسب عليها.

وضع الله في الإنسان الشهوة ونزعها من الملائكة وركب في الإنسان ما لم يركبه في الجن غير أن الإنسان والجن مخلوقان ليعبدا الله ويخضعا لمقاييس الإيمان والكفر بينما خلق الله الملائكة لتسبح له وتعبده ولا تخضع لأي امتحان دنيوي.

أما الجن فقد أوردت آيات القرآن الكريم كثيراً عنهم كما ورد ذكرهم في التوراة.

تقول التوراة في سفر اللاويين ص 19:31 (لا تلتفتوا إلى الجان ولا تطلبوا التوابع فتتنجسا بهم أنا الرب إلهكم). ويرد أيضاً في سفر صموئيل الأول أن شاؤل طلب من جنده أن يفتشوا له عن امرأة تحضر الجن. فأحضروها له وتدعي أنها أخرجت النبي صموئيل من موته أو أحضرت روحه لشاؤل ليسأله ماذا يفعل بعدما ضاقت عليه السبل.

والجن خلقٌ من خلق الله لا نعلم حقيقتهم ولم نرهم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27] والاعتقاد بهم واجب، وهو من الأمور السمعية التي أخبر بها رسول الله ﷺ بنص قاطع الثبوت والدلالة ولولا أن الله ذكرهم في القرآن ما علمنا بوجودهم وهم يتوالدون ويتناسلون لقوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾ [الكهف: 50]، ومنهم البار والفاجر لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ [الجن: 14] ولم يقل أحد أنهم أفضل من البشر.

وقد ذكر لفظ الجن والجان والجنة 32 مرة في إحدى وثلاثين آية من القرآن الكريم.

وليس للجن سلطان على الإنسان، ومن يستعن بالجن فإنه استعان بغير الله وهذا إشراك بالخالق رب العالمين. وقد فصلت سورة الجن طبيعته وعمله وحدود معرفته.

وسنتعرض لدراسة الجن والملائكة في الجزء الثاني من هذا الكتاب كونه يتعرض للعقيدة والإيمان بالله والملائكة والكتب السماوية وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وقد اكتفينا هنا بهذه الإشارات التي تتعرض لمسألة خلق الملائكة والجن فحسب.